

تأملات في آيات الصيام

أيام قليلة ونستقبل شهر رمضان المبارك، ولا يخفى على أحد ما لهذا الشهر من فضائل وخصائص امتاز بها عن غيره من الشهور، إنه مدرسة لتجديد الإيمان، وتهذيب الأخلاق، وتقوية الأرواح، وإصلاح النفوس، وضبط الغرائز، وكبح جماح الشهوات.

ومن حسن استقبال رمضان معرفة معني الآيات التي افترض الله علينا الصيام من خلالها، مع ما فيها من الدروس والعبر.

يقول تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (183) أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (184)} سورة البقرة.

ذكرت هذه الآية وما تلاها: كثيرًا من أحكام الصيام.

وقررت هذه الآية أن الصيام فرض على المؤمنين، كما كان مفروضًا في الديانات السابقة، وإن اختلف الصيام في كل أمة في الكيفية أو المدة. وقد فرض الله- تعالى- على المسلمين صيام شهر رمضان في شهر شعبان من السنة الثانية للهجرة

قال صاحب الكشاف، في تفسير قوله تعالى: {كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ}: على الأنبياء والأمم، من لدن آدم إلى عهدكم.

وقال علي - رضى الله عنه -: "إن الصوم عبادة قديمة، أخلق الله أمة من افتراضها عليهم" و كان العرب يعرفون الصوم، فقد جاء في الصحيحين عن عائشة قالت: كان يوم عاشوراء يوما تصومه قريش والجاهلية»

وإنما فرضه الله على كل أمة، لما له من فوائد جسمية وروحية.

والحكمة في تشبيه فرضه علينا بفرضه على من كان قبلنا، هي تخفيف مشقته على الصائمين، فإنه إذا كان شريعة عامة في جميع الديانات، كان ذلك أدى إلى الصبر عليه، وعدم التقصير فيه. ولأهميته جعل الركن الرابع من أركان الإسلام، كما في الحديث الصحيح المجمع عليه: "بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، والحج". رواه ابن عمر عن الرسول - صلى الله عليه وسلم-.

والصوم لغة: الإمساك، ومنه الصوم عن الكلام، كقول مريم عليها السلام: {إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ أَنْسِيًّا} وشرعًا: الإمساك عن الطعام والشراب ومباشرة النساء، من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، مع تبييت النية.

وللصيام آثار حسنة كثيرة. فهو يربي الوازع النفساني، وينمي الإرادة، ويبعث على الخير، ويقمع الشر، ويعلم الصبر، ويحقق المساواة بين الفقير والغني في الجوع، ويذكر الغني أخاه الفقير، فيعطف عليه، ويعينه .. إلى غير ذلك من الفضائل. وله فوائد صحية عديدة، أجمع عليها الأطباء.

وقوله: لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ جملة تعليلية جيء بها لبيان حكمة مشروعية الصيام فكأنه- سبحانه- يقول لعباده المؤمنين: فرضنا عليكم الصيام كما فرضناه على الذين من قبلكم، لعلكم بأدائكم لهذه الفريضة تتألون درجة التقوى والخشية من الله، وبذلك تكونون ممن رضى الله عنهم ورضوا عنه. ولا شك أن هذه الفريضة ترتفع بصاحبها إلى أعلى عليين متى أداها بأدائها وشروطها، ويكفى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد قال في شأن الصوم: «الصوم جنة» «1» أى:

وقاية. إذ في الصوم وقاية من الوقوع في المعاصي، ووقاية من عذاب الآخرة، ووقاية من العلل والأمراض الناشئة عن الإفراط في تناول بعض الأطعمة والأشربة

وقد بينت السنة فضائله. ومن ذلك: ما رواه الشيخان عن النبي - صلى الله عليه وسلم -: "من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا، غُفر له ما تقدم من ذنبه". وما رواه مسلم في حديث قدسي:

"كل عمل ابن آدم له، يُضاعف الحسنة بعشر أمثالها، إلا الصوم فإنه لي، وأنا أجزي به"

{أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ...} الآية. أي كتبه أيامًا قليلة تُعد.

والمراد بالأيام المعدودات: شهر رمضان، الذي سيصرح به في الآية التالية، وهذا هو رأي ابن عباس، وأكثر المحققين والتعبير عن الشهر: بأنه أيام معدودات، لتقليل مدته، والتيسير على الصائمين وكأنه - تعالى - يقول: فرضناه شهرًا تُعدُّ أيامه: ولم نفرضه أكثر من ذلك، رحمة بكم، وتيسيرًا عليكم.

{فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ}: أي فمن مرض منكم أو سافر فله أن يفطر مدة المرض أو السفر، ثم يقضي أيامًا بعدة أيام فطره

قال القرطبي: وللمريض حالتان: إحداهما: ألا يطيق الصوم بحال فعليه الفطر واجبا.

الثانية: أن يقدر على الصوم بضرر ومشقة فهذا يستحب له الفطر.. فالفطر مباح في كل مرض إلا المرض اليسير الذي لا كلفة معه في الصيام

وإذا أفطر المترخص بالسفر أو المرض، فلا ينبغي أن يعيب عليه من صام، ومع وجود الرخصة له.

فقد روى الشيخان عن أنس - رضي الله عنه -: "كُنَّا نُسَافِرُ مَعَ النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم - فَلَمْ يَعْجَبِ الصَّائِمُ عَلَى الْمُفْطِرِ، وَلَا الْمُفْطِرُ عَلَى الصَّائِمِ"

قال الإمام الرازي: قال القفال: انظروا إلى عجيب ما نبه الله عليه من سعة فضله ورحمته في هذا التكليف، إذ أنه بين في أول الآية أن لهذه الأمة في هذا التكليف أسوة بالأمم المتقدمة، والغرض منه ما ذكرناه من أن الأمور الشاقة إذا عمت خفت. ثم ثانيا بين وجه الحكمة في إيجاب الصوم وهو أنه سبب لحصول التقوى فلو لم يفرض الصوم لفات هذا المقصود الشريف، ثم بين ثالثا أنه مختص بأيام معدودة فإنه لو جعله أبدا أو أكثر الأوقات لحصلت المشقة العظيمة. ثم بين رابعا: أنه خصه من الأوقات بالشهر الذي أنزل فيه القرآن لكونه أشرف الشهور بسبب هذه الفضيلة. ثم بين خامسا: إزالة المشقة في إلزامه فأباح تأخيرها لمن شق عليه من المسافرين والمرضى إلى أن يصيروا إلى الرفاهية والسكون. فهو- سبحانه- راعى في إيجاب الصوم هذه الوجوه من الرحمة فله الحمد على نعمه كثيرا»

وصايا للاستعداد لشهر رمضان:

- 1- العلم بأن أدراكه نعمة عظيمة ، فلنستشعر فضل شهر رمضان وبركته وأثره على الأفراد والأمم.
- 2- العزم الصادق، والنية الخالصة، لعمل الخير فيه، والمؤمن يثاب بصدق نيته قبل العمل .
- 3- التوبة الصادقة النصوح، والتحلل من حقوق العباد ومظالمهم، ويطلبُ المُسامحة من إخوانه. وفي الحديث: «رجم الله عبداً كانت عنده مظلمة في عرضٍ ومالٍ، فجاءه فاستحلَّه قبل أن يؤخذَ وليس ثمَّ دينارٌ ولا درهم، فإن كانت له حسنات أخذَ من حسناته، وإن لم تكن له حسنات حملوا عليه سيئاتهم».

4- ومن حسن الاستقبال الخطة العملية المسبقة فضع برنامجاً عملياً لا غتنام أيام وليالي رمضان في طاعة الله تعالى، وقسّم وقتك وكن منظماً، ولا تكن عشوائياً. واحرص على أن تجعل لك وقتاً معيناً للذكر والتسبيح دُبّر كل فعلٍ تقوم به، ودُبّر كل صلاة، وقبل النوم وبعده، واحرص على بر عائلتك وأرحامك. ولا تنسى حسن الجوار مع جيرانك مسلمين وغير مسلمين .

كم ستقرأ من القرآن في اليوم ؟ كم ركعة من صلاة التطوع ستصلي ؟ كم ستفق من الزكاة المفروضة والصدقة المندوبة ؟

نسأل الله تعالى أن يبارك لنا في ما بقي من شعبان وأن يبلغنا رمضان، وأن يعيننا فيه على فعل الخيرات وترك المنكرات. آمين